الفصل الخامس

نظم القرآن ومنهج ابن عاشور

دراسة تقويمية

إسرار أحمد خان(*)

مقدمة:

قد لا أكون مبالغاً في قولي: إنّ المفسرين سواء كانوا من المتقدمين أو من المتأخرين، كانوا على درجة واحدة من الأصالة في منهجهم في تفسير القرآن الكريم، وفي الحقيقة ثلاثة منهم لا شك في أنهم كانوا قد وضعوا مناهج أصيلة. وهم محمد بن جرير الطبري (توفي 310هـ)، ومحمود بن عمر الزمخشري (توفي 538هـ)، ومحمد ابن عمر فخر الدين الرازي (توفي 606هـ). أما بقية المفسرين فقد حذوا إلى حد كبير حذو الثلاثة المذكورين آنفاً. ويبدو أنّ جامع البيان للطبري، والكشاف للزمخشري، ومفاتيح الغيب للرازي هي كتب التفسير الأصيلة، وجاء عدد من المفسرين نهجوا نهجاً جديداً ومختلفاً مما كان عند من سبقهم. وأشهر هؤلاء منهم إبراهيم بن عمر البقاعي (توفي 885هـ)، وعبد الحميد الفراهي (توفي 1930)، ومحمد الطاهر ابن عاشور (توفي 1973)، وسيد قطب وأبو الأعلى المودودي (توفي 1979)، وأمين أحسن الإصلاحي (توفي 1997). والشيء الذي جعل هؤلاء مختلفين عن بقية المفسرين هو نظرية نظم القرآن واستخدامها في

(*) استاذ مشارك، قسم دراسات القرآن والسنة، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. بريد إلكتروني: israr53@yahoo.com

obeikan.com

التفسير. ويعدّ كلّ من "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" للبقاعي، و"دلائل النظام" للفراهي، و"التحرير والتنوير" لابن عاشور، و"في ظلال القرآن" لسيد قطب، و"تفهيم القرآن" لأبي الأعلى المودودي، و"تدبر قرآن" للإصلاحي من أشهر الكتب ممثلة لمدرسة نظم القرآن. فما هو نظم القرآن؟ وما هو الغرض أو الأغراض للنظم؟ وهل النظم نظرية فقط أم هو نظرية وتطبيق في تفسير القرآن؟ إنّ المقصود بهذه المقالة الإجابة عن الأسئلة، ونقد لمنهج ابن عاشور في ما يتعلق بنظم القرآن في تفسيره.

أولاً: نظم القرآن عند أهل البلاغة وعند المفسرين

أنشأ علماء البلاغة تصوراً مفاده أنّ البلاغة في القرآن تختلف عن البلاغة المعروفة عند شعراء العرب في الجاهلية. ويعدّ كلّ من الجاحظ (توفي 255هـ)، والرماني (توفي 384هـ)، والخطابي (توفي 388هـ)، والباقلاّني (توفي 403هـ)، والجرجاني (توفي471هـ) متخصصين في علم إعجاز القرآن. ورأوْا أنّ الأساس لكون القرآن معجزاً هو نظمه، والإنسان لا يستطيع اتباع نظم القرآن في شعره وكلامه. فالنظم في القرآن -كما يقول أهل البلاغة- ترتيب الكلمات ومعناها والربط القوي بينهما، إذا غُيِّر هذا النظام في كلمات القرآن اختل ومعناها، وذهب الجمال القرآني، ولم يبق القرآن كلاماً معجزاً.[1]

أقدم تفاسير القرآن "جامع البيان في تأويل القرآن" للطبري. وهذا التفسير مبني على آراء الصحابة والتابعين وأتباع التابعين. إنّ ما فعله الطبري في تفسيره ما هو إلاّ تقديم آراء علماء متقدمين، ورأيه عند تفسير كل آية، ولا ذكر في أيّ

(1) الجاحظ، عمرو بن بحر. **الحيوان**، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.، ج4، ص89. وانظر أيضاً:
- الخطابي، حمد بن محمد. **بيان إعجاز القرآن**، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول، بعنوان ثلاثة رسائل في اعجاز القرآن، مصر: دار المعارف، د.ت.، ط4، ص27.
- الجرجاني، عبد القاهر. **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمود محمد الشاكر، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1983م، ص49-50.
- الباقلاني، محمد ابن الطيب. **إعجاز القرآن**، تحقيق: أحمد صقر، مصر: دار المعارف، د.ت.، ط5، ص276-277.
- Mir, Mustansir. *Coherence in the Quran: A study of islahi concept of Nazm in Taddabur-I Quran*. Washigton: American Trust Publication, 1986, p.10-16.

مكان لنظم القرآن وأهميته في التفسير. وجاء بعده عدد من المفسرين، ولكن ما استخدم أحد منهم منهجا مختلفا عن منهج الطبري. ويعدّ الزمخشري مفسراً بمنهج جديد يقوم على عناصر عديدة بما فيها الرؤية اللغوية العربية والاجتهاد. وقد أثر منهجه تأثيراً عميقاً في تفسير القرآن لمن بعده. والعنصر الأساس في تفسيره التعقل والتدبر في القرآن المنـزل، وما وصل الزمخشري إلى جوهر نظم القرآن. واستخدم الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب منهجي الطبري والزمخشري، النقل والعقل. وقد تراءى لنا أنّ أول مفسر اهتم بنظم القرآن في تفسيره هو الرازي. ويحتمل أنه أخذ هذا التصور من القاضي عبد الجبار (توفي 415هـ) الذي كتب تفسير القرآن "تنـزيه القرآن عن المطاعن" وذكر فيه النظم في الآيات القرآنية. ولا شكّ في أن الرازي اهتم اهتماماً كبيراً بالنظم في الآيات، ولكنه ما رأى نظم القرآن منهجاً مناسباً للتفسير.

وبعد الرازي يأتي الحرالي الذي حاول تفسير جميع الآيات القرآنية على فكرة أنها مترابطة بعضها ببعض، وذلك في كتابه: "مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنـزل" والكتاب ليس منشوراً، ولذلك لا يستطيع أحد أن يقول قولاً محدداً عن كيفية نظم القرآن عند الحرالي. واستفاد البقاعي إلى حد بالغ من كتاب الحرالي في تفسيره "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". ويبدو أن البقاعي أول مفسر حاول إبراز الربط التام بين آية وآية قبلها وبعدها. فوُجدت عنده مبادئ نظم القرآن بوضوح. وبعد البقاعي نرى أن نظم القرآن بقي متروكاً عند علماء التفسير إلا بعد ستمائة سنة، فقد ظهر في الأفق العلمي عبد الحميد الفراهي (توفي 1930هـ)، كرّس الفراهي حياته وقضى أوقاته في تدبر القرآن واكتشف نظم القرآن بصورته الكاملة بما فيها المراحل التي لا بدّ من معرفتها لفهم القرآن وتفسيره. ومن الأسف أنه قضى نحبه قبل إيفاء عهده، وإكمال تفسيره المنطلق من نظم القرآن. وما تجاوز تفسير سورة البقرة وقصار السور. وجاء أحد تلامذته أمين أحسن الإصلاحي الذي تمّم أمنية أستاذه الجليل بوضع تفسير القرآن بكامله بعنوان "تدبر قرآن" باللغة الأردية. وتأثّر بالفراهي كلّ من سيد قطب، وأبي الأعلى المودودي، ومحمد أسد.

ثانياً: تعريف نظم القرآن

من المعروف أن الكلام الفصيح والبليغ يتكون من العناصر الأساسية وهي التمهيد والعمود والسياق والخاتمة. والكلام الذي يفقد أحد هذه العناصر ليس كلاماً مؤثراً ولا يعبأ به أحد. فأما القرآن فنؤمن بأن فيه الفصاحة والبلاغة، وعليه وجب علينا أن نعتقد أن القرآن الذي جمع الله سبحانه وتعالى كلامه فيه سورة وسورة، تشتمل كل سورة، طويلة أو قصيره، على العناصر الأساسية السابقة. فلا بدّ للذين يريدون الاهتمام بنظم القرآن من اكتشاف هذه العناصر الأربعة في كل سورة، لكي يصلوا إلى حكمة كل كلمة وردت في أية سورة من سورة، ويستطيعوا أن يفسروا القرآن بقلب مطمئن. والوسيلة الوحيدة للوصول إلى إبراز العناصر الأربعة هو تدبر القرآن. فنظم القرآن هو منهج في التفسير الذي يستهدف اكتشاف الحكمة بين ترتيب الآيات في السور، ويهدي متدبر القرآن إلى وحدة الموضوع في سورة واحدة. وإنّ الفرق بين نظرية نظم القرآن عند البلاغيين والمفسرين دقيق. فهو عند البلاغيين نظم نظرية فقط، وعند المفسرين منهج وتطبيق.

وقد كتب ابن عاشور مقدمة لتفسيره تشتمل على عشر مقدمات. تتعلق بعلوم القرآن، هي: التفسير والتأويل وكون التفسير علما، واستمداد علم التفسير، وصحة التفسير بغير المأثور ومعنى التفسير بالرأي، ومايحق أن يكون غرض المفسر، وأسباب النـزول، والقراءات، وقصص القرآن، واسم القرآن وآياته وسوره وترتيبها وأسمائها، ومعاني جمل القرآن، وإعجاز القرآن. في هذه المقدمات ناقش ابن عاشور آراء العلماء البارزين وحاول التسويغ لما يرى أنه الحق. فأما نظرية نظم القرآن وأهميتها في تفسير القرآن فقد ذكرها في مقدمته العاشرة تحت عنوان: "إعجاز القرآن". وتحت هذا العنوان يبدو أنّ ابن عاشور يؤيد ما ذهب إليه البلاغيون.

ثالثاً: نظرة عامة إلى منهج ابن عاشور في تفسيره

يمكن أن يقال إن ابن عاشور يستحق أن يوضع اسمه في قائمة المفسرين المأثورين والاجتهاديين، ومن جانب آخر قد يختلف إلى حد ما عن المفسرين المتقدمين والمتأخرين باستخدامه نظم القرآن الذي قد تغاضى عنه معظم المفسرين. فالأسلوب الذي استخدمه ابن عاشور في تفسير كل سورة تتكون من اثني عشر عنصراً منهجياً، وهذه العناصر هي: الأول: تحقيق أسماء السورة سواء أكانت معروفة أم غير معروفة؛ والثاني: ذكر عدد آيات السورة؛ والثالث: استقصاء زمن نـزول السورة، مكية أو مدنية؛ والرابع: تعيين الترتيب التاريخي لنـزول السورة؛ والخامس: بيان أسباب النـزول للسورة؛ والسادس: إحصاء أغراض السورة؛ والسابع: تشريح الآيات بالترتيب مركزا على فصاحتها وبلاغتها؛ والثامن: توضيح الأحكام الفقهية المستنبطة من الآيات التشريعية مع ذكر آراء الفقهاء المختلف فيها؛ والتاسع: ترويق الكلمات في كل آية لغة أصيلة؛ والعاشر: تصريح اختلاف القراء ببعض الكلمات في الآيات؛ والحادي عشر: اقتباس من الآراء المختلفة للنحويين في أهمية بعض الكلمات الواردة في آية؛ والثاني عشر: التدبر في الآيات التي تظهر مبادئ النظر غير المتناسبة بعضها ببعض للوصول إلى وجه من الوجوه للتناسب بين الآيات.

وقد طبّق ابن عاشور العناصر السابقة على سور القرآن ونأخذ منها نموذجاً هو سورة التحريم، وهي سورة قصيرة، ولكنها مملوءة بالقضايا التفسيرية، فتراه يبدأ بـ:

- **اسم السورة**: سميت سورة "التحريم" في كتب السنة والتفسير. والأسماء الأخرى كما وردت في المصادر هي: "سورة الـ(لِمَ تُحَرِّم)" و"سورة النبيء" و"سورة النساء".
- **وعدد آيات السورة**: اتفق أهل العدد على أن عدد آيها اثنتا عشرة.
- **صنف السورة**: هي مدنية، ولكن عند قتادة الآيات العشر الأولى مكية. وهذا بعيد عن الحقيقة.

- **زمن النـزول**: نـزلت قبل سورة الجمعة وبعد سورة الحجرات، وتدل الآية ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ [التحريم: 2] على أنها نـزلت بعد سورة المائدة.

- **سبب النـزول**: الأول: شرب رسول الله ﷺ عسلا عند زينب إحدى زوجاته. وكرهت عائشة عندما جاءها هذا الخبر، وتواطأت هي وحفصة وقالتا لرسول الله ﷺ إن ريح مغافير خرجت من فمه، فقال: بل شربت عسلا ولن أعود له. أراد بذلك استرضاء حفصة وأوصاها ألا تخبر بذلك عائشة فأخبرت عائشة فنـزلت الآيات. والثاني: حرّم رسول الله ﷺ أم إبراهيم جاريته فقال: "والله لا أطؤك" ثم قال: "هي علي حرام" فأنـزل الله تعالى هذه الآيات.

- **أغراض السورة**: ذكر ابن عاشور سبعة أغراض:

الأول: لا يجوز لأحد أن يحرّم على نفسه ما أحل الله له. والثاني: إن الله يطلع على ما يخصه من الحادثات. والثالث: من حلف على يمين فرأى حنثها خير من برّها فعليه أن يكفر عنها. والرابع: تعليم الأزواج أن لا يكثرن من مضايقة أزواجهن. والخامس: موعظة الناس بتربية بعض الأهل بعضا. والسادس: وصف عذاب الآخرة ونعيمها وما يفضي إلى كليهما من أعمال الناس صالحاتها وسيئاتها. والسابع: ضرب مثلين من صالحات النساء وضدهن.

- **نكات الفصاحة**: ما تكلم ابن عاشور عن الفصاحة في السورة وبلاغتها إلا في كلمة واحة وهي "قلوبكما" بصيغة الجمع، ولكن بمعنى مثنّى، وقال: إن هذا الاستعمال مطلوب لخفة اللفظ عند إضافته إلى ضمير المثنى كراهية اجتماع مثنيين فإن صيغة التثنية ثقيلة لقلة دورانها في الكلام.

- **أحكام فقهية**: في السورة حكم فقهي واحد فقط، وهو ما يخصه من تحلة اليمين. قدم ابن عاشور في هذا الأمر بعض آراء الفقهاء كمالك ابن انس وأبي حنيفة وغيرهما.

- **ترويق الكلمات**: اختار ابن عاشور كلمات كثيرة من هذه السورة وتحدث عن معانيها الأصلية.

- **آراء القراء**: اختار ابن عاشور بعض الكلمات وقدم اختلاف القراء في قراءتها. مثلا بالنسبة للكلمة "عرف" قال: وقرأ الجمهور بالتشديد وقرأ الكسائي بتخفيف الراء.

- **آراء النحويين**: ركز ابن عاشور على أهمية الواو في الآية الخامسة التي تتحدث عن سبع صفات لزوجات الرسول ﷺ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: 5] بذكر آراء النحويين وبمن فيهم ابن خالويه، والحريري، والدماميني، والسهيلي.

- **النظم بين الآيات**: يتكلم ابن عاشور في تفسير كل آية عن الربط بينها وبين الآية التي قبلها. مثلا في تفسير الآية العاشرة ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: 10] يقول ابن عاشور إنما أعقبت جملة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التحريم: 9] في الآية التاسعة هذه الآية العاشرة، والمقصود منها تهديد الكافرين والمنافقين بعذاب السيف في الدنيا وإنذارهم بعذاب الآخرة.[2]

إنَّ اكتشاف النظم بين الآيات التي تبدو غير متصلة معنىً صعب جداً، ولأجل ذلك ما اهتم به معظم المفسرين، وما تفكروا في كيفية النظم بين آية وآية قبلها وآية بعدها. ويمكن تقسيم الآيات في السورة إلى نوعين: آيات لا تحتاج إلى تدبر عميق للنظم بينها، وآيات يحتاج المفسر إلى تفكر مستمر طوال حياته في نظمها. ويبدو أن ابن عاشور قد نجح في إتمام هذا العمل؛ إذ استخدم ابن عاشور لاكتشاف النظم بين الآيات خمسة مصادر ووسائل هي: الأحاديث الصحيحة، وآراء العلماء والمفسرين بما فيهم الزمخشري والرازي، وبلاغة القرآن وفصاحته، وأساليب البيان العربي القديم، والتدبر.

(2) ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، 2000م، ج28، ص307–340.

وفي السطور الآتية إبراز لمحاولة ابن عاشور تعيين كيفية النظم بين الآيات في ثلاث سور الفاتحة والبقرة والجمعة نموذجا.

1. النظم في سورة الفاتحة:

قبل تفسير سورة الفاتحة ينقل ابن عاشور حديث النبي ﷺ المروي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "قال الله عز وجل: قسمت الصلاة نصفين بيني وبين عبدي فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، يقول العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2] فأقول: حمدني عبدي، فإذا قال العبد: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: 3] يقول الله: أثنى علي عبدي، وإذا قال العبد: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: 4] قال الله: مجدني عبدي، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5] قال الله: هذا بيني وبين عبدي، وإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: 6-7] قال الله: هؤلاء لعبدي ولعبد ما سأل."[3]

ولم يوظف ابن عاشور هذا الحديث لبيان النظم بين آيات الفاتحة. بل جاء بهذا الحديث لإثبات القول أن في الفاتحة سبع آيات. ولكن هذا الحديث في الحقيقة قد يبرر وجه النظم بين الآيات في سورة الفاتحة. ويبدو أن ابن عاشور ما شعر بأهمية الحديث المذكور في تعيين النظم في الفاتحة.

2. النظم في سورة البقرة:

هناك نوعان من الآيات في سورة البقرة، الأول يحتوي على الآيات التي يوجد بينها رابط واضح، والثاني هي الآيات التي لا تظهر للوهلة الأولى الصلة بينها. فلنرَ كيف عين ابن عاشور النظم بين الآيات في النوع الثاني.

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ... ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 1-29] الآيات مترابطة بعضها بعض، وفي هذه الآيات حديث عن ثلاثة أصناف من الناس هم: المؤمنون والكافرون والمنافقون، وفي الآيات إنذار للكافرين والمنافقين لرفضهم الحق. وذكّرهم الله سبحانه وتعالى أنهم هم السفهاء بذكر الأمثال العديدة، ويدع الله

(3) المرجع السابق، ج1، ص134.

هؤلاء المنافقين والكافرين أن يسلموا إليه، ويخضعوا له، ويؤمنوا به؛ لأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما ويدبر الأمر فيهما.

وفي الآيات التالية 30–39 يأتي ذكر خلق آدم ومكانته خليفة وعالماً ومسجوداً للملائكة، وتسليم الملائكة أن آدم أرفع مكانة منهم، ورفض إبليس علو مكانة آدم، وسكن آدم وحواء في الجنة، وخطأ آدم وحوا وإخراجهما من الجنة، وتوبتهما مما حدث منهما من الخطأ، وسكنهما في الحياة الدنيا. فما الربط بين هذه الآيات والآيات قبلها (1–29)؟

لا يحاول ابن عاشور اكتشاف المناسبة بين هاتين المجموعتين من الآيات، بل هو يركز على تعيين الربط بين آية وآية بعدها. ولأجل ذلك يقول إن الربط بين الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 29] وبين الآية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30] هو ذكر خلق أول البشر بعد ذكر خلق السماوات والأرض. ويقول: "عطفت الواو قصة خلق أول البشر على خلق السماوات والأرض انتقالا بهم في الاستدلال على أن الله واحد، وعلى بطلان شركهم وتخلصا من ذكر خلق السماوات والأرض إلى خلق النوع الذي هو سلطان الأرض، والمتصرف في أحوالها، ليجمع بين تعدد الأدلة ومختلف حوادث تكوين العوالم وأصلها، ليعلم المسلمون ما علمه أهل الكتاب..."[4]

هذا الأسلوب لابن عاشور يماثل أسلوب كلّ من الرازي والبقاعي اللذين يأتيان بسبب واحد، أو أسباب عديدة للمناسبة بين الآيتين الملحقتين. وهذا ليس النظم الذي نحن بصدده الآن، فالنظم في السورة يقتضي النظر في الحكمة بين مجموعة الآيات التي يحتمل أن تتحدث عن موضوع واحد، وبين مجموعة أخرى تتكون من موضوع آخر. وما قاله ابن عاشور بالنسبة للربط بين الآية: 29 والآية: 30 ليس هو النظم. والذي يتدبر الآيات يرى أنها تمس موضوعاً واحداً هو أن الناس كلهم ثلاث، المؤمن والكافر والمنافق، وخاطبهم الله سبحانه وتعالى بذكر

(4) المرجع السابق، ج1، ص381.

أوصافهم المختلفة والمتغايرة. وأما الآيات: (30–39) فإنها تحتوي على موضوع آخر هو خلق آدم، وردّ الفعل المختلف من جانبين، الملائكة وإبليس، وامتحان آدم وزوجته في الجنة، وارتكابهما الخطأ، وتوبتهما من الخطأ، وتمكينهما في الأرض. فعلى المفسر اكتشاف الربط بين هذين الموضوعين المختلفين.

فالربط بينهما، كما قال الإصلاحي، هو أن المجموعة الأولى قد ذكر فيها نوعان من الناس: المؤمنون والكافرون، وفي المجموعة الثانية جاء فيها بيان خلق آدم ورفض إبليس حكم ربه، وهذه المجموعة الثانية تدل على أن ما فعله آدم وحواء بعد ارتكاب الخطأ هو في الحقيقة وصف المؤمنين، وما فعله إبليس هو صفة الكافرين، فكما أنعم الله على آدم وحواء برحمته الخاصة، سيغطي الله المؤمنين برأفته، ولا يستحق الكافرون إلا العذاب بسبب إنكارهم وحدانية ربهم كما سيعذب إبليس لرفض حكم ربه.[5]

في تفسير الآية: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: 40] يقول ابن عاشور: "انتقال من موعظة المشركين إلى موعظة الكافرين من أهل الكتاب؛ لأن فريق المنافقين لا يعدون أن يكونوا من المشركين، أو من أهل الكتاب اليهود..."[6] هذا الكلام لابن عاشور يشير فيه إلى حقيقة أنّ وجه النظم بين مجموعة الآيات (1–39) ومجموعة الآيات (40–151) التي تخاطب اليهود بالتهديد. ولكن نرى أن ابن عاشور لم يعتمد المنهج نفسه لاكتشاف وجوه النظم بين الموضوعات المتفرقة في سور القرآن.

لم يقف ابن عاشور من نظرية النظم عند الموضوع الرئيس، أو العمود في كل سورة؛ لأنه لو اطلع على الموضوع الرئيس لكان أمره في اكتشاف وجه النظم بين الموضوعات المتباينة في سورة البقرة وسور أخرى يسيراً جداً. فالعمود لسورة البقرة، كما قال سيد قطب والإصلاحي، انتقال السيادة والقيادة من أهل الكتاب إلى متبعي الرسول النبي الأمي ﷺ.[7] وبمعرفة هذا العمود لسورة البقرة سيكون سهلا للمفسر ان يفسر آياته في ضوء نظم القرآن.

---

(5) الإصلاحي، أمين أحسن. **تدبر قرآن**، نيودلهي: شريكة التاج، 1997م، ج1، ص153.

(6) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج1، ص432.

(7) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، القاهرة: دار الشروق، 1996م، المجلد1، ص28. انظر أيضاً:
– الإصلاحي، **تدبر قرآن**، مرجع سابق، ج1، ص652.

وتعالج الآيات (221–241) ثلاثة أمور اجتماعية رئيسة هي: النكاح والطلاق والعدة، ولكن الآيتان: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 238–239] تشتمل على أمر مختلف. فما وجه النظم بين الأمور الاجتماعية المذكورة والصلاة؟ يبدو أن ابن عاشور قد نسي في هذا المكان حبه لاكتشاف وجه النظم بين هذين الأمرين. ويتحير القارئ على ما لاحظه ابن عاشور بالنسبة للارتباط بين الأحكام المتعلقة بالزواج والطلاق والعدة والصلاة. من ناحية ثانية قال ابن عاشور: "الانتقال من غرض إلى غرض في آي القرآن لا تلزم له قوة ارتباط؛ لأن القرآن ليس كتاب تدريس يرتب بالتبويب وتفريع المسائل بعضها على بعض، ولكنه كتاب تذكير وموعظة، فهو مجموع ما نـزل من الوحي في هدى الأمة وتشريعها وموعظتها وتعليمها، فقد يجمع به الشيء للشيء من غير لزوم ارتباط وتفرع مناسب، وربما يكفى في ذلك نـزول الغرض الثاني عقب الغرض الأول، أو تكون الآية مأمورا بإلحاقها بموضع معين من إحدى سور القرآن... ولا يخلو ذلك من مناسبة في المعاني، أو في انسجام نظم الكلام، فلعل آية ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ نـزلت عقب آيات تشريع العدة والطلاق لسبب اقتضى ذلك من غفلة عن الصلاة الوسطى، أو استشعار مشقة في المحافظة عليها، فموقع هذه الآية موقع الجملة المعترضة بين أحكام الطلاق والعدة... فلما طال تعاقب الآيات المبينة تشريعات تغلب فيها الحظوظ الدنيوية للمكلفين، عقبت تلك التشريعات بتشريع تغلب فيه الحظوظ الأخروية، لكي لا يشتغل الناس بدراسة أحد الصنفين من التشريع عن دراسة الصنف الآخر..."[8] وهذا أمر غريب جداً من ابن عاشور الذي أنكر أولاً وجود النظم بين الموضوعين المتبائنين المذكورين، وبعد ذلك جاء باقتراح أن حكم المحافظة على الصلوات يكون جملة معترضة، ومن ثمّ يميل إلى اكتشاف وجه النظم بين حكم الصلاة وأحكام النكاح والطلاق. وبهذا الموقف لابن عاشور يمكننا القول أنه لم يتمكن من إدراك وجه ارتباط الكلام المنـزل؟ كيف حدث هذا لابن عاشور الذي يؤمن بأن القرآن كلام معجز؟ هل يمكن للكلام المعجز البليغ الفصيح أن يكون عاريا عن النظم القوي بين

(8) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج2، ص444.

الكلمات؟ وفي الحقيقة إعجاز القرآن لا يبتنى ولا يتأسس إلا على نظم القرآن.

والتدبر في هذين الموضوعين المختلفين لا بد أن يؤدي بالمتدبر إلى وجه مسوّغ لارتباط حاسم بينهما. فقد ذكر الله في هذه الآيات من (221–242) أربع خصائص لمخاطبي هذه الأحكام وهي: التوابين والمتطهرين (222)، والمؤمنين (223)، والمحسنين (236). والمقصود بذكر هذه الصفات التأكيد على أن الناس الذين يتصفون بهذه الصفات العالية هم الذين يستطيعون أن يمتثلوا بأوامر الله في النكاح والطلاق والعدة. ودون هذه الخصائص ليس هناك سبيل لأحد أن يتذكر ويتبرأ ويتقي ويعمل بهذه الأحكام المنـزلة، ولتطور هذه الصفات الأربعة ولتمكينها في الحياة اليومية يحتاج الإنسان إلى صفة أخرى وهي: قانتين في الآية (238)، والقنوت لله هو الصفة التي تجعل في حياة الناس الصفات الأربعة المذكورة، وترسخها في قلوبهم. فأما صفة القنوت فهي التي تحتاج لاستمرارها إلى اهتمام بإقامة الصلوات والصلاة الوسطى، ولأجل ذلك دعا سبحانه وتعالى متبعي الرسول –عليه السلام–، إلى إقامة الصلاة حق الإقامة. ومعنى ذلك أنّ الذين لا يهتمون بإقامة الصلاة لا يستطيعون الاتصاف بالصفات المطلوبة، ولهذا لا يستطيعون إقامة الأحكام المنـزلة الأخرى بما فيها أحكام النكاح والطلاق والعدة.

3. النظم في سورة الجمعة:

الآية الأولى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١] يقول ابن عاشور: إن هذه الآية تخبر بتسبيح أهل السماوات والأرض لله تعالى، وهذا براعة استهلال؛ لأن الغرض الأول من السورة التحريض على شهود الجمعة والنهي عن الأشغال التي تشغل عن شهودها.[9] بهذا البيان يماثل ابن عاشور البقاعي الذي يرى أن المقصود بسورة الجمعة اهتمام بصلاة الجمعة.[10] فلا شك في أن صلاة الجمعة لها مكان خاص في العبادات، وهذا فرض عين إلا بالأسباب المعينة في الشريعة الإسلامية، ولكن هل الصفات الأربع المذكورة في

(9) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج28، ص185.

(10) البقاعي، إبراهيم ابن عمر. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، بيروت: دار الكتب العلمية، 1995م، ج7، ص590.

الآية الأولى لتحريض المؤمنين على الاهتمام بالجمعة؟

وفي محاولته لاكتشاف حكمة المناسبة بين الآية الأولى والآية الثانية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: 2-3] يقترح ابن عاشور أن الصفات الأربع (الملك القدوس العزيز الحكيم) تتعلق ببعثة الرسول الذي يطهر الناس ويزكيهم ويعلمهم. لا شك في هذا، ولكن عند ما يفصل ابن عاشور التعلق بين الصفات وبعثة الرسول هو يأتي بشيء آخر، ويقول: "فصفة الملك تعلقت بأنه يدبر أمر عباده ويصلح شؤونهم، وصفة القدوس تعلقت بأن يزكي نفوسهم، وصفة العزيز اقتضت أن يلحق الأميين من عباده بمراتب أهل العلم، ويخرجهم من ذلة الضلال، فينالوا عزة العلم وشرفه، وصفة الحكيم اقتضت أن يعلمهم الحكمة والشريعة."[11]

ولا يستطيع أحد أن ينكر على ابن عاشور ما ذكره من الربط بين الصفات الأربع، ورسالة الرسولﷺ. ولكن كما أكد الفراهي أن الكلام لا بدّ من أن يتكون من العناصر الأربعة وهي: التمهيد والعمود والمنهج والخاتمة. فسورة الجمعة التمهيد فيها الآية الأولى، والتمهيد كما هو معروف يتصل مباشرة بجميع العبارات في الكلام، وليس فقط ببعض الأجزاء فيه. ولهذا يمكن أن نقول إن الصفات الأربع المذكورة في التمهيد ما تعلقت فقط بفرائض النبي ﷺ.

وذكر ابن عاشور تحت أغراض سورة الجمعة ستة أغراض. وهذه الأغراض في الحقيقة هي البيانات في السورة، والتمهيد متعلق بهذه البيانات الستة.

وعند تبيين المناسبة بين الآية الرابعة: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤] والآية الخامسة: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: 5] يقول ابن عاشور: "بعد أن تبين أنه تعالى آتى فضله قوماً أميين، أعقبه بأنه قد آتى فضله أهل الكتاب..."[12] هذه المناسبة كما اقترح ابن عاشور لا تقنع العقول. ولو نظر ابن عاشور إلى أغراض هذه السورة بنظر عميق لوجد وجه النظم بين هاتين

(11) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج28، ص185-186.
(12) المرجع السابق، ص191.

الآيتين. فأحد الأغراض في البداية الذم لليهود، ففي الآية الخامسة ذم اليهود. فلماذا هذا الذم؟ لأن اليهود لم يجعلوا أنفسهم مستحقي فضل الله بصورة بعثة النبي الخاتم. وهذه الآية تشير إلى السبب الأول من الأسباب العديدة لعدم استحقاق اليهود فضل الله.

ولا شك في أن ابن عاشور قد جاء بشيء من المناسبة بين هذه الآية والتي قبلها، ولكن دون إقناع. وعند تفسيره للآية السادسة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: 6] يقول ابن عاشور: "أعقب تمثيل حال جهلهم بالتوراة بذكر زعم من آثار جهلهم بها..."[13] وفي الآيات من (5–8) إشارة إلى جرائم اليهود لتبرير عدم استحقاقهم لفضل الله.

وعندما وصل ابن عاشور في تفسيره سورة الجمعة إلى الآية التاسعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: 9] قال: "هذه الآيات هي المقصود من السورة وما قبلها مقدمات وتوطئات لها."[14] وللنظم بين هذه الآية وما قبلها أفاد ابن عاشور ما حكاه الزمخشري في تفسيره "الكشاف" أن اليهود افتخروا على المسلمين بالسبت فشرع الله للمسلمين الجمعة، فقال بالحسم: "فهذا وجه اتصال هذه الآية بالآيات الأربع التي قبلها، فكان لهذه الآية تمهيدا وتوطئة."[15] وبالنظر هل ما رواه صاحب الكشاف صحيح أم لا؟ فإنّ هذه الرواية غير حاسمة. للادعاء بأن الجمعة قد شرعت للمسلمين إجابة لافتخار اليهود على المسلمين بالسبت. وما جاء ذكر السبت في أي آية في سورة الجمعة. ولو كان في الآيات قبل هذه الآية المذكورة ذكر افتخار اليهود بالسبت؛ لكان قول ابن عاشور مسوّغاً ومعقولاً. وفي الحقيقة إنّ هاتين الآيتين (9–11) متصلتان بالآية الأخيرة: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: 11] التي جاء فيها تعريض بالتوبيخ. يرى ابن عاشور أنّ الآية الأخيرة معطوفة على الآيتين التاسعة والعاشرة.

(13) المرجع السابق، ص193.
(14) المرجع السابق، ص196.
(15) المرجع السابق، ص197.

يهدي التدبر في هذه الآيات الثلاث إلى أنها تكوّن موضوعاً واحداً. فعلى المتدبر أن يكشف وجه الارتباط بين هذا الموضوع والموضوعات الواردة في الآيات الثماني الأولى. لذلك يجب عليه أن يتفكر في ما هو العمود لهذه السورة، والعمود لسورة الجمعة انتقال القيادة من اليهود إلى المسلمين. هذا العمود يسوّغ الصلة بين جميع الآيات في سورة الجمعة. وعند ابن عاشور العمود لهذه السورة إقامة الجمعة، فهل يمكن الكشف عن وجه النظم بهذا العمود بين جميع الآيات؟

والآيات الأولى من (1–8) تتكلم عن الأسباب الموجبة لتجريد اليهود من منصب السيادة، ولبعثة النبي الخاتم في غير أهل الكتاب، والآيات الثلاث الأخيرة تشتمل على التنبيه للمسلمين بمثال واحد يتعلق بإقامة الجمعة، فقيل لهم في الآيات الأخيرة إن اليهود قد أصبحوا من المحرومين من فضل الله بالأسباب التي فيها حبهم الجم للدنيا، والمسلمون الذين قد فضلوا على اليهود، فعلوا ما فعل اليهود وهرولوا إلى التجارة واللهو تاركين رسولهم على المنبر. فجاء ذكر صلاة الجمعة في السورة على سبيل المثال لتنبيه المسلمين ولنصحهم أنهم حاملو سيادة الناس الآن، كما كان اليهود من قبل، وأنهم سيحرمون ذلك المنصب العالي إذا حذوا حذو اليهود.

خاتمة:

إن ابن عاشور قام بدوره بوصفه مفسراً للقرآن في إلقاء الضوء على النظم بين الآيات في سور القرآن، وهو بهذا يستحق التنويه لمساهمته في هذا الأمر. ومع هذا لم يستطع ابن عاشور تطبيق النظم في تفسير القرآن كما اقترح عبد الحميد الفراهي (توفي 1930) في رسائله. ولو اطلع ابن عاشور على ما قاله الفراهي لاستخدم منهج الفراهي في تفسيره، فأصبح تفسيره فريداً فذاً. وما فعله ابن عاشور هو تحقيق المناسبة بين الآيات، وليس اكتشاف النظم بينها. ويبدو أن ابن عاشور رجح نظرية نظم القرآن من ناحية الإعجاز في القرآن، ونظم القرآن ليس فقط إبراز البلاغة والفصاحة في القرآن، بل هو منهج يستهدف التوضيح لوحدة الموضوع في جميع السور القرآنية. وإنّ اكتشاف وحدة الموضوع في كل سورة خدمة عظيمة تؤدي إلى حقيقة كبيرة مفادها أن بلاغة القرآن وفصاحته بحاجة إلى

تحقيق ودقة نظر لاستخراجها واستجلائها. والذين لا يجدون ولا يعتقدون وجود النظم في القرآن ليس لهم الحق أن يدَّعوا أن القرآن فيه من البلاغة والفصاحة ما لا يستطيعه أحد من الإنس أو من الجن.

obeikan.com